شهريّات

بقلم رئيس التحرير

حرية التأليف وحرية النشر..

الصديق طاهر بن جلون عاتب، بل غاضب.

غاضب عليّ كناشر، وغاضب على «دار الآداب».

لماذا؟

لأني أخلفت وعدي بنشر الترجمة العربية لكتاب له باللغة الفرنسية.

والواقع أني، بعد أن قرأت المخطوطة، ولم أكن قرأتها بنصّها الأصلي الفرنسي، كتبت إلى طاهر أبلغه أننا قررنا ارجاء نشر الترجمة إلى «وقت أفضل» تكون قبضة «الرقابة على الكتب» قد تراخت فيه عن عنق المؤلفين والناشرين!

وأوضحت للأديب المغربي المعروف أن بعض العبارات والصور والأحداث التي تتضمنّها الرواية كافية لمنعها في معظم البلدان العربية التي بلغت الرقابة فيها، خلال الأشهر الأخيرة، ما لم تبلغه من الشدّة والتزمّت في أحلك عهود القمع والإرهاب!

لم يقتنع الصديق طاهر بهذه الحجّة، فكتب إليّ يقول إن رسالتي إليه تركته «في حالة اندهاش كبير»، على حدّ تعبيره!

وأضاف:

«أتساءل: ما هو دور الناشر، وخصوصاً في بلاد الرقابة الصارمة؟ ما هو دور ناشر ساهم منذ ربع قرن في تشجيع وخلق أدب عربي جديد وطلائعيّ؟ أين شجاعة المثقف، أكان مؤلفاً أم ناشراً في العالم العربي؟ أبهذه الكيفية - تراجع وخضوع للإرهاب الفكري - سنقاوم سياسة تخريب الفكر وانعدام حرية التعبير والعمل؟ هل على الناشر أن يحلّ محل الشرطي فيصير هو الرقيب الأول؟».

وتساؤلات الطاهر مشروعة، من حيث المبدأ. ولكنّها حين تتدبّر الأمور بروح من الواقعية، تكفّ عن أن تثير «الاندهاش الكبير» الذي أصاب الكاتب، مع شدة تعلّقي بالدهشة والاندهاش اللذين ينبغي أن يتحلّى بهما كل كاتب مبدع!

وما دام الطاهر يعترف بدور «دار الآداب» التي «ساهمت منذ ربع قرن في تشجيع وخلق أدب عربي جديد وطلائعي»، فقد كان يحسن به إلاّ يضع موضع الشك شجاعة الناشر، لأنّ الإسهام في خلق أدب جديد، وطلائعي على وجه الخصوص، لا يمكن أن يتمّ إلاّ بقدر معيّن من الشجاعة!

وقد كان يحسن بالصديق كذلك ألاّ يعتبر الامتناع عن نشر كتابه، في الوقت الحاضر، ضرباً من «التراجع والخضوع للإرهاب الفكري»، لأنّ لنا من الحجج والبراهين ما يكفي لاعتبار الإقدام على نشر الكتاب، في الوقت الحاضر، ضرباً من الدونكيشوتية ومحاربة طواحين الهواء، إذا لم يكن ضرباً من إيذاء النفس يؤدّي، مع تكرار التجربة، إلى ما يشبه الانتحار!

إنّ الغاية من نشر كتاب ما، هي «نشره» بالفعل، أي تسويقه وترويجه وإذاعته بين القرّاء، وليست هي التفرّج عليه والاستمتاع برؤيته مكدّساً في مستودع الكتب، بسبب منعه من «الانتشار» والتنقّل بين أيدي القراء! على أن الطاهر، وغير الطاهر، يعرف ان «دار الآداب» نشرت كثيراً من الكتب الجريئة الصادمة... غير أنّ هذه الكتب كان يُسمح لها بدخول «بعض» البلدان التي تتميّز رقابتها بأنها أقلّ تزمّتاً من بعضها الآخر، فكان الخطر من بقائها وتأسُّنها في المستودعات أقلّ وأيسر شأناً.

وحين قررنا إرجاء نشر كتاب الطاهر، كنا قد حكمنا بأنه، لسبب أو لآخر، سيحظر دخوله إلى معظم البلدان العربية، إن لم يكن جميعها... فآثرنا إرجاء النشر إلى وقت مناسب تصبح فيه امكانية التسويق كافية لتغطية جزء من نفقات إصداره...

في هذه العبارة الأخيرة إشارة إلى همّ تجاري لا بدّ من أخذه بعين الاعتبار... والمؤلّف الذي يهمله أو يتجاهله لا بدّ من أن يكون مصاباً بالازدواجية... ذلك أنه يشترط على الناشر أن يتقاضى منه حقوقه كاملة غير منقوصة، لا سيما إذا كان كاتباً معروفاً، سواء راج كتابه أو كسد، وسواء مُنع من التداول أو أُطلق.. فالهمّ «التجاريّ» إذن غير بعيد عنه، ولا يحق له في هذه الحالة أن يطالب الناشر بالتضحية... بحجة أنه يؤدّي رسالة! ذلك أن تأدية الرسالة لا تمرّ ضرورة بوجوب منع الكتاب، لأن هذا المنع، إذا طبّق على عدد معيّن من الكتب، يؤدي حتماً إلى تعريض الدار الناشرة لخسائر قد تجد نفسها معها مضطرة إلى اغلاق أبوابها، فيكون في ذلك حرمان لها حتى من تأدية أية رسالة!

إن «الرقابة» على المنشورات تخضع لموجات متفاوتة من التساهل أو التشدّد، من التسامح أو التعنّت، من التغاضي أو الاستشراء، وفق التوجيهات التي تصدر عن الحكّام إلى أجهزة الإعلام.. ولا شك في أن لشخصية المراقب ذاتها دوراً في تشديد الرقابة أو تيسيرها. وقد يكون التشديد صادراً عن رغبة في تفادي الحرج أو ايثار السلامة، لا عن اقتناع حقيقي بضرورة التشديد!.

وهذه جميعاً أمور يضعها الناشر الواعي نصب عينيه حين يواجه اصدار كتاب من الكتب. فهو يراعي أوضاع البلاد التي يُسوَّق إليها الكتاب، ويحاول أن يتجنّب الارتماء في الفترات الحارّة، منتظراً الفترات الباردة التي تسمح له بتوزيع الكتاب. وأكرر هنا أن الحقبة التي نعيشها تتميّز باحتداد فريد في مواجهة الكلمة والقلم والكتاب، وأن ذلك ينعكس حقاً هبوطاً في مستوى الإبداع نلاحظه على صفحات المجلات والكتب. ولا يدهشنا حدوثه في هذه الفترة التي لا يسمح فيها معظم الحكام بحريّة التنفُّس للكتّاب والمؤلفين والناشرين جميعاً!.

إن الرقابة على الكتب لا تني تتذرّع بمبدأ «حماية القارىء» من «أذى المؤلف والناشر»، وتسحب الأذى والإيذاء على الكتب الايديولوجية مرة، وعلى الكتب الجنسية مرة، وعلى الكتب الدينية، سلباً أو ايجاباً... بل قد تضع اسم مؤلف بعينه على لائحة الحظر، تُمنع كتبه بسبب اسمه، وبغض النظر عن موضوعات الكتب، أو تضع اسم دار بعينها على هذه اللائحة، تحظر كتبها بشكل مطلق...

وقد مُنع من كتب «دار الآداب» خلال الأشهر السبعة الماضية من هذا العام أضعاف أضعاف ما مُنع طوال أعوام سابقة، حتى أصبح بإمكاننا التأكيد بأن حرية التعبير والفكر كانت مصانة ومحترمة في السنوات السابقة باضعاف أضعاف ما هي اليوم!

وقد حاولنا طويلاً وما نزال نحاول، ونحن نزاجع دوائر الرقابة، أن نقنع المسؤولين بأن هذا السلوك القمعي لن يزيد المؤلفين والكتّاب إلاّ مضيًّا في الدفاع عن حقهم المقدس في حرية التعبير.

وإذن، فإن الاستمرار في رفع صوت الاحتجاج على رقابة الكتب والصحف، وفي دينونة سلوكها، وفي المطالبة برفع الرقابة سواء في الصحف أو المؤتمرات، هي الطريقة الأجدى والوسيلة المثلى للدفاع عن حق المؤلف في حرية التأليف، وحق الناشر في حرية النشر.

سهيل ادريس

دار ابن خلدون
للطباعة والنشر والتوزيع

IBN KHALDOUN
PUBLISHING HOUSE

صدر حديثاً

- أغاني العمل والعمال في فلسطين	علي الخليلي	٧ ل.ل.
- كلمات إلى الشباب	فيديل كاسترو	٤ ل.ل
- النيل في خطر	كامل زهيري	١٠ ل.ل.
- النقابات والاشتراكية	هـ. كرازدكي	٣,٥٠ ل.ل.
- الديناصور الأخير (قصيدة - رواية)	فاضل العزاوي	٥ ل.ل.
- الثقافة السياسية للفلاحين المصريين.	د. كمال المنوفي	١٦ ل.ل.
- السلطة الساسية والطبقات الاجتماعية	نيكوس بولانتزاس	١٤ ل.ل.
- المكارثية والمثقفون	آريك بنتلي	٢٢ ل.ل.
- مع ناظم حكمت في سجنه	مذكرات علي فائق البرجاوي	٧ ل.ل.
- أراجون (دراسة وقصائد مختارة)	ترجمة الشاعر عبد الوهاب البياتي	٦ ل.ل.
- البصقة (رواية)	د. رفعت السعيد	٤ ل.ل.
- عصافير الشمال (رواية)	علي حسين خلف	١٠ ل.ل.